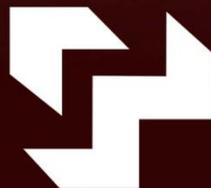


دراسات محكمة

تاريخ الصحافة في شمال المغرب: قراءة في القوانين المنظمة
للصحافة في الحقبة الاستعمارية

د. سعيد الحاجي،

أستاذ باحث في التاريخ المعاصر والراهن بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، المغرب



ملخص البحث

واجهت مرحلة تأسيس الصحافة المغربية خلال الاستعمار تحديات عديدة، على رأسها المقاومة الشرسة للقوى الاستعمارية المتمثلة في فرنسا وإسبانيا اللتان أدركتا مبكرا، أهمية الصحافة والأدوار المهمة التي يمكن أن تلعبها لصالح الحركة الوطنية المغربية. لذلك، عمدت إلى تطبيقها مبكرا بمجموعة من القوانين للحد من أي انتشار للصحافة واستغلالها في التعبئة ضد الاستعمار.

Abstract

The establishment of the Moroccan press during the French–Spanish colonization faced several challenges, especially the fierce resistance of the two colonizers. They, early, recognized the importance of the press and the pivotal roles it could play for the benefit of the Moroccan national movement. Therefore, they imposed many laws to contain any spread or any possible use of the press by Moroccan national movement for mobilization against the colonizers.

مقدمة

رغم عمر الصحافة القصير بالمغرب مقارنة مع البلدان التي تعد منشأ هذه الآلية التواصلية، فإنها لعبت أدوارا مهمة في مراحل دقيقة من تاريخ البلاد. وإن كانت ولادة الصحافة المغربية ولادة عسيرة، ارتبطت كما تذهب إلى ذلك مختلف الدراسات التاريخية، بسياق نضالي تحرري من الاستعمار الفرنسي والإسباني على حد سواء.

لقد كان عرف المغرب الصحافة ووسائل الإعلام في مراحل متأخرة، وإلى حدود منتصف القرن التاسع عشر، كانت الصحافة جنسا تواصليا غريبا على المجتمع المغربي من النخبة وصولا إلى باقي الفئات الأخرى، ويمكن اعتبار هذا الأمر عاديا أخذا بعين الاعتبار البنية التقليدية للدولة والمجتمع على حد سواء. إذ كانت هناك قنوات أخرى لنقل الأخبار وتصريف وجهات النظر والمواقف، ولم تبرز الحاجة إلى الصحافة إلا بعد أن أصبح المغرب محط أنظار القوى الاستعمارية التي استعملت الصحافة كسلاح إلى جانب أسلحة أخرى، لتمهد الطريق أمام احتلال المغرب عبر فرض معاهدة الحماية عليه.

لقد كانت أمام محاولات تأسيس الصحافة المغربية خلال الاستعمار تحديات عديدة، على رأسها المقاومة الشرسة للقوى الاستعمارية المتمثلة في فرنسا وإسبانيا اللتان أدركتا مبكرا، أهمية الصحافة والأدوار المهمة التي يمكن أن تلعبها لصالح الحركة الوطنية المغربية. لذلك، عمدت إلى تطويقها مبكرا بمجموعة من القوانين للحد من أي انتشار للصحافة واستغلالها في التعبئة ضد الاستعمار.

وإذا كانت منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب منذ سنة 1912، تعاملت بصرامة مع الصحافة من الناحية القانونية حتى قبل ظهور أولى الصحف بالمنطقة. فإن الوضع بمنطقة النفوذ الإسباني شمال المغرب كان مختلفا إلى حد ما. خصوصا، وأن إسبانيا تأخرت في سن قوانين الصحافة لعدة اعتبارات، وهو ما سنحاول رصده في هذه الدراسة التي تسعى إلى تقديم قراءة في قوانين الصحافة وسياق وضعها في المنطقة الشمالية المغربية بالمنطقة الشمالية، وذلك بعد التطرق لحيثيات ظهور الصحافة بالمنطقة الشمالية المغربية.

رغم تأخر ظهور الصحافة بالمغرب والتي تمثل عملية نقل الأخبار أحد وظائفها الرئيسية، فقد وجدت بالمغرب قنوات للتواصل بين مكونات المجتمع المغربي، كانت تنقل عبرها الأخبار المختلفة، ويذهب جامع بيضا أنه قبل وخلال القرن التاسع عشر، كان التواصل بين مكونات المجتمع المغربي يقوم على أربع قنوات:

أولاً: البراح الذي يتجول رافعا صوته بالأخبار الجديدة في الأحياء والأسواق حيث تتبادل السلع والمعلومات.

ثانياً: المسجد والزاوية والمدرسة العتيقة حيث يتجمع المصلون والمتعلمون لتلقي الأخبار ومناقشة قضاياهم.

ثالثاً: الرقاص، أي ساعي البريد الذي ينقل الرسائل العامة والخاصة، وقد نظم الحسن الأول مهنة الرقاص سنة 1892 لقطع الطريق على البريد الأوروبي.

رابعاً: القوافل والتجار و"الحلايقية" الجوالون، والذين ينقلون الأخبار بين أطراف جهات المغرب، وحتى بين المغرب والخارج.

وقد كانت هذه الشبكة الشفوية لتبادل المعلومات فعالة، سماها صحفي فرنسي تُلغراف غير مرئي، وأضاف "لذا لم يحتج المغاربة إلى الصحافة"¹.
2- الصحافة بالمغرب قبل الاستعمار:

2-1 رحلة الصفار .. أول احتكاك للمغاربة مع الصحافة الأجنبية

شكل منتصف القرن التاسع عشر منعطفا مهما في تاريخ تعاطي المغاربة مع الصحافة بمفهومها الحديث، تمثل في رحلة محمد الصفار، الذي يعد أول كاتب مغربي على مستوى العالم العربي والإفريقي كتب عن صحافة الغرب، وقبل ذلك كان بدرجة أقل كتاب رفاعة الطهطاوي في كتابه تلخيص الإبريز في تاريخ باريز سنة 1834.

يصف الصفار صحافة فرنسا خلال القرن التاسع عشر، بقوله:

" ولأهل باريز كغيرهم من سائر الفرنسيين بل وسائر الروم تشوق لما يتجدد من الأخبار ويحدث من الوقائع في سائر الأقطار، فاتخذوا لذلك الكوازيط²، وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إلى علمهم من الحوادث في بلدهم

¹ - Jamaà Baida, La presse marocaine d'expression française des origines à 1956, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Rabat serie Theses N°31 1996, p. 32

أو غيرها من البلدان النائية والقريبة. وبيان كيفيتها أن صاحب دار الكازيطة، يتخذ أقواما يرسلهم لالتقاط الأخبار من كل ما يسمعونه أو يرونه في ذلك اليوم من المهمات والحوادث والوقائع والنوادر وغير ذلك مما يحسن الإخبار به.³

إن وصف الصفار للصحف بكلمة " الكازيطة " في أواخر القرن التاسع عشر بعد رحلته إلى باريس، يحيل على البداية المتأخرة جدا للصحافة بالمغرب. في وقت كانت الصحافة قد عرفت أوج انتشارها، وأصبحت لها أدوار مهمة في مختلف المحطات التي عرفت دول أوروبا الغربية. كما أن الصورة التي نقلها الصفار عن مجالات اشتغال الصحافة الفرنسية، لم تكن ليتم استيعابها في المغرب، خصوصا عندما يتحدث عن البرلمان الفرنسي، حيث كتب "ومن جملة محال التقاطهم للأخبار، القمرتان الكبيرة والصغيرة،⁴ اللتان يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم، فإذا اجتمع أهل القمرة وأخذوا في الخوض في نوازلهم ووقائعهم جلس أصحاب الكوازيط في ناحية يكتبون كل ما تكلم به فيها."⁵

ويستشف كذلك من كلام الصفار أن حرية الصحافة كانت مضمونة في فرنسا، خصوصا فيما يرتبط بنقل الوقائع والأحداث السياسية، حيث ورد في رحلة الصفار "فكل ما وقع الكلام عليه فيها وانبرى من الأحكام يصح غدا في الكوازيط ويشهر لسائر الناس، وليس يقدر أحد أن يمنعهم من ذلك إلا إن كان كلامهم في أمر سر يجب كتمه عن سائر الناس فيمنعونهم"⁶

كما وصف الصفار مراسلي الصحف وأدوارهم "ولأصحاب الكوازيط مراسلات ومكاتبات مع سائر البلاد، ولهم في كل بلد من يعرفهم بأخبارها وما وقع فيها أو بلغها من جهة أخرى، لذلك نجد أصحاب الكوازيط يعرفون غرائب الأخبار قبل الناس، وهؤلاء الملتقطون يظنون يومهم في التقاط الأخبار، فإذا أمسوا تكلم كل واحد منهم بما جمعه في ذلك اليوم، فيطبعه صاحب الكازيطة ويجعل منه عدة ورقات بطبع الإسطنبا وسيأتي بيانها فيما بعد..."⁷

² - الكازيطا: كلمة بالإسبانية معناها الجريدة، وفي عهد الصفار لم تكن الجرائد العربية متداولة حتى يستعمل اسم الجريدة، ولإتقان الصفار اللغة الإسبانية، استعمل هذه الكلمة بكثرة في وصفه.

³ - رحلة الصفار لفرنسا 1845 - 1846 لمحمد بن عبد الله الصفار الأندلسي التطواني، سوزان ميلر، ترجمة: عبد الله بن الصغير، الطبعة الأولى، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2007، ص: 189

⁴ - يقصد مجلس النواب ومجلس النبلاء

⁵ - رحلة الصفار، مرجع سابق، ص. 190

⁶ - نفسه، ص. 190

⁷ - نفسه، ص. 190

تعود الإرهاصات الأولى لظهور الصحافة بالمغرب، إلى سنة 1860، حين أسس روائي إسباني صحيفة في تطوان، حيث كان يهدف من خلالها إلى "نشر أنوار غوتنبرغ على أرض إفريقيا"⁸. بعد ذلك ظهرت أول جريدة ناطقة بالفرنسية على أرض المغرب في يوليوز عام 1870، على يد يهوديين في حماية بريطانيا وعلى صلة بالرابطة الإسرائيلية العالمية في باريس. في عددها الأول، هاجمت La Gazette de Tanger المخزن وفرنسا وإسبانيا، وقد غضب الوزير الفرنسي المفوض في طنجة، لأن الجريدة أشارت إلى مواجهات على الحدود الجزائرية المغربية. فسارع إلى بركاش ممثل السلطان في طنجة يطلب منه منع الجريدة، وقد عجز بركاش عن المس بالمحميين البريطانيين. لكن الجريدة لم تستمر، لأن الوزير البريطاني المفوض تخلى عن محميه بعد ذلك، لأنه اعتبر أن تلك الجريدة الأسبوعية خطيرة على بلد مثل المغرب.⁹

صدرت في المغرب سبع عشرة جريدة ناطقة بالفرنسية بين 1870 و 1912 تاريخ بدء الحماية، وظهرت ثلاث عشرة جريدة في طنجة وأربع في الدار البيضاء. كانت البداية من طنجة لعدة أسباب منها الموقع الجغرافي والساكنة المتنوعة للمدينة، وكونها عاصمة المغرب الدبلوماسية منذ 1780، إضافة إلى ربط المدينة بالتلغراف مع وهران منذ 1901. وقد لعبت معظم تلك الجرائد المقربة من المفوضية الفرنسية في طنجة، دورا هاما في تمهيد الأرضية للاستعمار أو ما سمي بالتوغل الهادئ في المغرب.¹⁰

2- 2 الحركة الصحافية بطنجة قبيل الاستعمار:

بعد أن أقرتها معاهدة الجزيرة الخضراء سنة 1906 كمنطقة دولية، كان من الطبيعي أن تعرف مدينة طنجة حراكا صحفيا مبكرا قبل ظهوره في باقي المناطق المغربية. وقد تميزت الصحافة الطنجية في مغرب ما قبل الاستعمار، بتلقي بعض الجرائد دعما ماليا وتوجيها على صعيد الخط التحريري وأخبارا من بعض القناصل الفرنسيين، وكانت الصحافة مرآة عاكسة للصراع حول "المسألة المغربية"، بفعل الحرية المطلقة والمنافسة الاستعمارية. كما كانت المنابر الصحفية تدافع عن المصالح الأوروبية وتحرض الحكومات الأوروبية على المخزن، الشيء الذي جعلها في مناسبات عديدة تمس بالسيادة المغربية، وتتجاهل مشاعر وقيم المغاربة، وتنتقد موظفي المخزن وتسبب إزعاجا شديدا للسلطان. ومن جهة أخرى فقد تعاونت الصحافة مع البعثات العلمية

⁸ - Jamaà Baida, La presse marocaine d'expression française des origines à 1956, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Rabat serie Theses N°31 1996, p.33

⁹ Ibid, p. 37

¹⁰ Ibid, p. 32

والتبشيرية والطبية والتعليم لتنفيذ سياسة التوغل الهادئ، وعملت على تعبئة الرأي العام الفرنسي لمساندة الاحتلال، وكانت تحت المعمرين على الاستيطان في المغرب. وحاولت إقناع المغاربة بمنافع الاستعمار. لذلك، أنشأت بعض المفوضيات في طنجة صحفا ناطقة بالعربية لمخاطبة المغاربة، واعتمدت فرنسا على الصحافيين الجزائريين لاختراق الأوساط التي لا تقرأ اللغة الفرنسية في المغرب.¹¹

2 - 3 سياسة المغرب مع الصحافة قبيل الاستعمار:

فشل المغرب في منع صدور الصحف في طنجة، لأن رؤساءها أجنب أو محميون لا تطالهم القوانين المغربية، غير المخزن خطته وتبنى سياسة الاحتواء بدل المواجهة، ومن الإجراءات التي قام بها:

1- استقطاب بعض الصحفيين للدفاع عن مصالحه وتعظيم السلطان وفضح الضغوط الاستعمارية، والرد على الصحف المعادية وتقارير الجمعيات الأوربية، ومنها جمعية Howard التي أصدرت تقريرا في 1893 حول وضعية السجون المغربية. وقد ردت الصحيفة الموالية للمخزن بأن ذلك التقرير فيه مبالغات وأن الجمعية أداة في يد الحكومة البريطانية، وقد نجحت سياسة الاستقطاب بفضل تعدد الصحف بطنجة مع نهاية القرن التاسع عشر.¹²

2- أنشأ الحسن الأول مكتب الصحافة الذي يقدم للمخزن ملخصات للمقالات التي تمس المغرب والصادرة سواء في طنجة أو في الخارج، وإرسال بعض المفوضيات مقالات تخدم فيها مصالح للمخزن. كما كلف المخزن بعض الأشخاص وأحيانا بعض الصحافيين ليمدوه بمقالات تتناوله، وللجأ المخزن إلى صحافة طنجة لتمير بلاغات تدافع عن مصالحه.

3- تفكير المخزن في إصدار جريدة تدافع عن مصالحه، ومعارضة ذلك من طرف بعض العلماء المحيطين بالسلطان، والذين عرقلوا المشروع وصدرت مقالة ساخرة بعنوان "الضرب بالزراويط على رأس من يقرأ الكوازيط" (أي الجرائد ب Les gazettes).

¹¹ - Ibid, p. 60

¹² - Ibid, p. 54

- 4- تدخل المخزن لدى بعض المفوضيات في طنجة للجم بعض الصحف التي تنشر مقالات تشوش على "إخلاص المغاربة لسلطانهم"، وكان رد المفوضيات أن حرية الصحافة تمنع متابعة الصحفيين.
- 5- نشر السلطان مولاي حفيظ رسالة في جريدة Le Matin الصادرة في باريس 17-03-1908 يحتج على تدخل الجنرال الذي يحكم الشاوية في صراع مولاي عبد الحفيظ ومولاي عبد العزيز على السلطة.¹³
- 6- نقل السلطان مقر صدور جريدة الفجر من طنجة إلى فاس، لكنها توقفت بعد عدد من عدددين.
- 7- كانت النخبة الغير المخزنية مهتمة بالصحافة، ومن ذلك شغف أتباع الزاوية الكتانية بالصحافة، وقد لعبوا دورا مهما في خلق مولاي عبد العزيز وتنصيب مولا حفيظ، كما شبه شيخ الزاوية الكتانية تأثير الصحافة بالطاعون.¹⁴

3 - الصحافة بالمنطقة الشمالية المغربية خلال الاستعمار الإسباني:

- يمكن تقسيم الصحافة بالمنطقة الشمالية خلال المرحلة الاستعمارية إلى أربعة أصناف حسب محمد الحبيب الخراز:
- الصنف الأول:** الصحافة الإسبانية بمدينة سبتة المغربية المحتلة وتضم 79 صحيفة.
- الصنف الثاني:** الصحافة الإسبانية بمدينة مليية المغربية المحتلة وتضم 62 صحيفة بالإضافة إلى بعض الصحف التي كانت تنشر بمدن: الحسيمة ووادي لو والناظور وهي 11 صحيفة.
- الصنف الثالث:** الصحافة الإسبانية والعربية بكل من القصر الكبير 3 صحف وأصيلة صحيفتان وشفشاون 6 صحف والعرائش 25 صحيفة وتطوان 147 صحيفة.
- الصنف الرابع:** الصحافة الدولية والوطنية بطنجة، وبها في مرحلة قبل الحماية 12 صحيفة إسبانية و6 صحف فرنسية وصحيفتان إنجليزية وصحيفة واحدة ألمانية و11 صحيفة عربية ومغربية. أما في مرحلة الحماية فنجد

¹³ - Ibid, p. 60

¹⁴ - Ibid, p. 84

40 صحيفة إسبانية و 21 صحيفة فرنسية و 3 صحف إيطالية و 8 صحف عربية، وأما في مرحلة بعد الإستقلال فذكر المؤلف 10 صحف عربية¹⁵.

3- 1- الجرائد العربية بالشمال المغربي:

كانت الجرائد المصرية تصل إلى منطقة الشمال المغربي عبر اشتراكات بعض الوطنيين في بعض الصحف المصرية، مثل عبد السلام بنونة الذي كان يتوصل بطرود بريدية تحمل إليه أعدادا من بعض الجرائد المصرية مثل مجلة العرفان، حيث كان ينظم حلقات لقراءة ما ينشر في تلك الجرائد ومناقشة مواضيعها مع ثلة من الوطنيين في تطوان.¹⁶

لقد ساهم في وصول الجرائد المصرية إلى منطقة الشمال المغربي، اعتماد التطوانيين على البريد البريطاني الذي لم يكن يواجه رقابة مشددة، وهو ما جعل هذه الوسيلة تساهم في إيصال جرائد الشرق حتى إلى منطقة الحماية الفرنسية، كما يشير إلى ذلك عبد الكريم غلاب في مذكراته. خصوصا وأن عدد الجرائد التي كانت ممنوعة من الدخول لمنطقة الحماية الفرنسية كان يفوق 1400 جريدة، وهو ما يعطي الانطباع عن طبيعة الحصار الشديد الذي كان مفروضا على الصحافة في المنطقة الفرنسية.¹⁷

3- 2- المبادرات المغربية الأولى لتأسيس الصحف في المنطقة الشمالية:

كانت أول مبادرة يمكن وصفها بالإعلامية تتمثل في إصدار عبد السلام بنونة جريدة "الإصلاح"، التي صدر عددها الأول في 29 يناير 1917 والتي ترأسها بنونة وترأس تحريرها محمد العربي الخطيب. وقد كانت هذه الجريدة لسان حال المجمع العلمي المغربي وصدر منها 29 عددا وتوقفت عن الصدور في 25 فبراير 1918م.¹⁸

كانت جريدة الإصلاح التي أصدرها بنونة تختص بنشر المقالات العلمية وكانت لسان حال المجمع العلمي المغربي، ولم تكن تحمل أية مضامين سياسية. والملاحظ هو أنها صدرت قبل وضع سلطات الاستعمار

¹⁵ - محمد الحبيب الخراز، الصحافة بشمال المغرب من التأسيس إلى الاستقلال، مطبعة إمبريا مدريد، الطبعة الأولى، تطوان، 2012، ص. 412

¹⁶ بن عزوز حكيم، الحاج عبد السلام بنونة، أب الحركة الوطنية، حياته ونضاله، الجزء الأول، مطبعة الساحل، الرباط، 1987، مرجع سابق، ص. 242

¹⁷ - عبد الكريم غلاب، المغرب الأقصى، منشورات حزب الاستقلال، القاهرة، 1951، ص. 162.

¹⁸ - محمد بن عزوز حكيم، أب الحركة الوطنية، الجزء الأول، ص 175

الإسباني بشمال المغرب، لقانون ينظم الصحافة بالمنطقة، ويجهل لحد الآن سبب توقف صدور جريدة الإصلاح، مع العلم أنه كانت هناك جريدة تحمل نفس الاسم، كانت لسان حال الإقامة العامة الإسبانية بالمغرب، والتي استمرت في الصدور بعد توقف جريدة الإصلاح التي أصدرها بنونة.¹⁹ وقد استمرت جريدة الإصلاح التي كان يصدرها الإسبان في الصدور إلى غاية 31 دجنبر 1931.²⁰

ومن بين محاولات إصدار الصحف قبل وضع قانون الصحافة بالمنطقة الشمالية خلال الاستعمار، تلك التي قام بها عبد السلام بنونة باستغلال صداقته مع الصحفي الإسباني رافاييل دي رودا الذي كانت له علاقات مع بنونة والطريس، وكان يشرف على الجريدة الإسبانية El Norte de Africa (الشمال الإفريقي) باللغة الإسبانية، حيث أقتعه بنونة بتخصيص صفحتين من جريدته لنشر الأخبار باللغة العربية. وقد صدر العدد الأول من الجريدة بهذه الصيغة يوم 17 ماي 1918، وصدر منها بعد ذلك حوالي 51 عددا قبل أن تتوقف بسبب عرقلتها من طرف السلطات الاستعمارية الإسبانية.²¹

- مشروع جريدة النهضة:

حاول بنونة وضع مشروع لتأسيس جريدة عربية يشرف على تسييرها وتمويلها بنفسه تحت اسم "النهضة" في 25 يونيو 1927، وقد حدد لها مجموعة من المبادئ السياسية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والثقافية. واللافت للانتباه، أن مبدأ الجريدة السياسي حسب ما حدده بنونة، يتمثل في نهج سياسة ودية مع إسبانيا، وسياسة " تحفظ " كما وصفها مع فرنسا، أما مع الحكومة الخليفة المحلية فقد أعلنت الجريدة تبنيها سياسة تنبيه واقتراح. وقد تقدم بنونة بطلب الترخيص بنشر الجريدة إلى السلطات الاستعمارية الإسبانية في 29 يونيو 1927.²²

لقد كان موقف الإدارة الاستعمارية الإسبانية من طلب بنونة، يحمل إرهابات إصدار أول قانون للصحافة بالمنطقة الشمالية، إذ أشارت تقارير استخباراتية إسبانية حول طلب بنونة، إلى أن هذا الأخير يطرح مشكلا بخصوص القانون الذي ينظم عمل الصحافة، والذي لم يكن موجودا بعد. وقد أشارت التقارير حينذاك

19 - نفسه، ص. 177

20 - عبد القادر الخراز، مجلة دار النيابة، العدد 13 سنة 1987، ص. 28

21 - بن عزوز حكيم، الجزء الأول، ص. 245.

22 - محمد بن عزوز حكيم، أب الحركة الوطنية، الجزء الأول، ص 251

على القيادة الاستعمارية الإسبانية إلى أنه "أصبح من الضروري أن يوجد في هذه المنطقة قانون ينظم صدور تلك الدوريات ويحدد الإجراءات التي يلزم أن تخضع لها.."²³، ومباشرة بعد تقدم بنونة بمشروع جريدة النهضة الذي لم يخرج إلى الوجود، رغم تبني بنونة في مبادئ المشروع سياسة مهادنة، سيصدر الظهير الخلفي الخاص بقانون الصحافة يوم 22 محرم 1346 هـ، الموافق 22 يوليوز 1927م.²⁴

4 - قوانين الصحافة بالمنطقة الشمالية خلال الاستعمار الإسباني:

4 - 1 الظهير الخلفي الخاص بقانون الصحافة يوم 22 محرم 1346 هـ، الموافق 22 يوليوز 1927م:

يعد هذا الظهير أول قانون متعلق بالصحافة في المنطقة الشمالية المغربية، في عهد الخليفة السلطاني الحسن بن المهدي، أما قبل ذلك في عهد والده الخليفة المهدي فلم يصدر أي قانون بخصوص الصحافة في المنطقة رغم مرور 15 عاما على بداية الاستعمار الإسباني. وهذا راجع لكون المنطقة بكاملها كانت تحت سيطرة الجيش الإسباني بفعل حروب التحرير في قبائل الشمال الجبلية والريفية ضد الاستعمار الإسباني، ولم ينتفس فيه الصعداء إلا بعد نفي الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد صدر هذا الظهير في الجريدة الرسمية عدد 17 من السنة الحادية عشرة بتاريخ 13 ربيع الأول 1345 هجرية الموافق ل 10 شتنبر 1927 ميلادية.²⁵ يوحي عنوان الظهير بأنه ليس ثابتا ولا قارا في نصوصه بشأن المطبوعات، وإنما هو قابل للتغيير والإلغاء إذا قرر المقيم العام الإسباني ذلك. وعند صدور هذا الظهير لم تكن بمنطقة الحماية الإسبانية في شمال المغرب، أية صحيفة مغربية واحدة، باستثناء مجلتي "الإصلاح" و"الاتحاد" التابعتين للاستعماري الإسباني. وقد ظل الظهير جامدا وغير ساري المفعول حوالي ست سنوات بعد صدوره، بفعل غياب وجود صحف تعمل بموجبه، وقد بدأ تطبيقه الفعلي بعد صدور مجلة السلام 1933 وجريدة الحياة سنة 1934.²⁶ يعرف الفصل الأول من هذا الظهير الجريدة على أنها "كافة أصناف المطبوعات التي تنشر بعنوان مستمر مرة أو مرات في اليوم أو في أوقات متفاوتة منظمة أو غير منظمة لا تتجاوز 30 يوما، أما الملحقات والأعداد فهي داخلة في هذا التحديد مجملا بأمر هذا الظهير "

²³ - من تقرير نيابة الأمور الوطنية ليوم 05 يوليوز 1927، ابن عزوز حكيم، الجزء الأول، ص. 255

²⁴ - الجريدة الرسمية لمنطقة النفوذ الإسباني عدد 17 ص 895، انظر: ابن عزوز حكيم، الجزء الأول، ص. 256

²⁵ - سمي بـ "ضابط المطبوعات في أوقات معلومة"

²⁶ - محمد الحبيب الخراز، محمد الحبيب الخراز، الصحافة بشمال المغرب من التأسيس إلى الاستقلال، مطبعة إمبريا مدريد،

الطبعة الأولى، تطوان، 2012، ص. 131

وقد كانت السلطات الاستعمارية تفرض على أصحاب الجرائد، إخبارها بأمر النشر في مدة أقصاها خمسة عشر يوما قبل نشر أول عدد، بالإضافة إلى اشتراط تمتع صاحب الجريدة "بجميع حقوقه المدنية حسب القانون الجاري في بلده"، كما كان تشترط إيداع أمانة قدرها 2000 بسيطة لإدارة المالية بالمنطقة للحصول على ترخيص بإصدار الجريدة.²⁷

ويوضح الفصل الثالث دواعي استخلاص هذا المبلغ، والمتمثلة في جعلها ضمانا لاستخلاص ما قد يفرض على الجريدة من غرامات نظير إخلالها بأحد قوانين الصحافة الممثلة في هذا الظهير. كما تحدد الفصول 4 و5 و6 من الظهير المذكور، المسؤوليات التي تقع على عاتق مدير الجريدة الذي يكون مسؤولا أمام الإدارة الاستعمارية، والتي يكون لها الحق في تحديد نوع العقوبة المفروضة بسبب المخالفات المرتكبة،²⁸ بالإضافة إلى اشتراط نشر التصحيحات والاعتذارات على الصفحة الأولى من الجريدة، حيث يتولى المقيم العام الإسباني تحديد العقوبات كما هو مبين في الفصل السابع من الظهير، وهي كالتالي:

- توقيف الجريدة أثناء أجل لا يتعدى 15 يوما

- وضع المراقبة على ما ينشر في جرائد المنطقة

- منع دخول المطبوعات والجرائد ورواجها

إن منح المندوب السامي حق تحديد نوع العقوبة المفروضة على الجرائد التي تخالف بنود الظهير، وعدم التحديد الدقيق للمخالفات التي يمكن أن يقع فيها أصحاب الجرائد، يحيل على طبيعة هذا القانون القمعية التي أراد من خلالها الإسبان تطويق الصحافة المغربية بشمال المغرب منذ الإرهاصات الأولى لنشأتها. لقد كانت السرعة التي أخرج بها القانون ترجع ربما لمحاولة سلطات الاستعمار الإسباني في المنطقة الشمالية، تطويق المحاولات الرامية إلى تأسيس الصحف خصوصا بعد الإلحاح الذي أبان عنه عبد السلام بنونة، وما يؤيد هذا الطرح هو أن بنود الظهير الخلفي لسنة 1927 جاءت فضفاضة في معظمها، ولم تتجاوز سبعة فصول.

²⁷ - حسب الفصل الثاني من هذا الظهير.

²⁸ - لم يتم تحديد طبيعة هذه المخالفات

ساهم ظهير 22 يوليوز 1927 في إحداث حركية إعلامية مهمة في المنطقة الشمالية، حيث بادر بعض الوطنيين حينها إلى طلب الترخيص بإصدار بعض الصحف، خصوصا وأنها أرادت استغلال هذا القانون الذي رأت فيه شروطا "مخففة" مقارنة مع الظهير المعمول به في المنطقة السلطانية²⁹.

4 - 2 ظهور الصحافة العربية بشمال المغرب بعد ظهير 1927:

ارتبط ظهور الصحافة بالمغرب أساسا باستعماره من طرف فرنسا وإسبانيا، إذ أن تزايد حدة الاستغلال الاستعماري بعد تراجع المقاومة المسلحة، وبداية النضال السياسي الذي قاده زعماء الحركة الوطنية، قد جعل الحاجة ملحة إلى الإعلام، بالنظر إلى دوره في تعزيز التواصل بين مختلف المكونات داخل المجتمع. ولذلك فقد كان نمو الحس الوطني ومناهضة الاحتلال الإسباني عاملين أساسيين في تطور الإعلام بشمال المغرب خلال فترة الاستعمار، إضافة إلى رغبة الوطنيين في إحداث ثورة ثقافية، تساهم في النهوض بمستوى الفرد في المجتمع كي يصبح قادرا على مواجهة تحديات الاستعمار.

بعد وضع ظهير قوانين الصحافة سنة 1927، بدأت تظهر مجموعة من الجرائد في المنطقة الشمالية، ورغم محدودية الانتشار واقتصار قراءتها على فئات معينة من المجتمع، إلا أن الإعلام الجهوي والمحلي عرف تطورا كبيرا خلال مرحلة الاستعمار. وعلى مستوى آخر، لعب الإعلام دورا أساسيا في نقل صورة عن مختلف الأحداث التي كان يشهدها المشرق العربي خصوصا، إلى الوطنيين المغاربة الذين كانوا يتفاعلون مع باقي الحركات الوطنية في المشرق، مثل الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية والحركة الوطنية في مصر بقيادة سعد زغلول التي بلغت أعلى درجات نشاطها في تلك الفترة، حيث كانت الصحف المشرقية ترد على المغرب بأخبار هاتين الحركتين الصاخبتين³⁰.

وقد بدأت أولى محاولات تأسيس الصحف في المنطقة الشمالية في شهر أبريل من سنة 1930م، حيث قدم كل من عبد السلام بنونة وعبد الخالق الطريس عدة طلبات لإصدار صحف وطنية، فتقدم بنونة بطلب إصدار صحيفتي "النهضة" و"البيان"، وتقدم عبد الخالق الطريس بطلب إصدار جريدة عربية وطنية اسمها "الفجر" يوم 14 شتنبر 1932م، ثم طلب آخر في 20 يونيو من نفس السنة لإصدار جريدة أخرى هي "الحرية". لكن كل هذه الطلبات في البداية قوبلت بالرفض، نظرا لتخوف إدارة الاستعمار الإسباني من تحول الصحافة إلى سلاح لمواجهتها وتعبئة ساكنة المنطقة ضد سياساتها.

²⁹ - محمد بن عزوز الحكيم، الحاج أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله، الجزء الأول، م س، ص.

³⁰ - التهامي الوزاني، الزاوية، مطبعة الريف، تطوان، 1942، ص.131

ومع صدور ظهور الحريات العامة لسنة 1931م سوف يزداد هامش الحريات نسبيا، حيث سيصدر محمد داوود جريدة "السلام" في أكتوبر 1933³¹، وسنة 1934م أصدر عبد الخالق الطريس جريدة عربية كانت لسان حال الحركة الوطنية في الشمال هي جريدة "الحياة"³².

ومن جهة أخرى بادرت أحزاب الحركة الوطنية إلى إصدار جرائد تعبر عن مواقفها، مثل جريدتي الحرية والريف باللغة العربية التابعتين لحزب الإصلاح الوطني، وجريدة (Unidad Marroqui) باللغة الإسبانية والتي كانت لسان حال حزب الوحدة المغربية³³. إضافة إلى جرائد أخرى توالى الترخيص بصدورها خصوصا في عقد الثلاثينات وما يليه.

4 - 3 ظهير 11 يناير 1936م:

أثارت موجة تأسيس الصحف التي عرفتها المنطقة الشمالية المغربية، تخوف الإدارة الاستعمارية من أن تصبح الصحافة سلاحا في يد الوطنيين لتأليب الناس على الاستعمار. لذلك، عمدت إلى إصدار ظهير سمي بظهير المطبوعات في 11 يناير 1936م، يلغي ظهير 1927م. ومن أهم مميزات الظهير الجديد توسعه في تحديد ما يندرج ضمن المطبوعات الخاضعة للتقنين، حيث أضافت الرسوم والنقش الحجري والتصوير سواء على الورق أو النسيج أو غير ذلك، وقد تكون ظهير المطبوعات من 17 فصلا.³⁴

وبعدما كان ظهير 1927 يتميز بعمومية فصوله، جاء ظهير المطبوعات لسنة 1936 بفصول موعلة في التضييق ووضع القيود على العمل الصحفي، ومن ذلك ضرورة وضع نسخ من الجريدة لدى الباشوية وإدارة المراقبة الإسبانية خمسة أيام قبل نشره³⁵، كما يشترط في نشر الأوراق المنفردة (الإعلانات)، إخبار سلطات الاستعمار الإسباني أربع وعشرين ساعة بمضمونه والشخص المسؤول عن صياغته وتوزيعه³⁶، وأعطى هذا

³¹ - عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية من الحرب الريفية إلى بداية الاستقلال، الطبعة الأولى، مطابع الشركة الوطنية للطبع والنشر، الدار البيضاء، 1976، ص. 254.

³² - ن م، ص. 147.

³³ - جامع بيضا، دور الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الإعلان عن الاستقلال، ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، 1904 - 1955، بتاريخ 6 - 8 جمادى الأولى 1412 هجرية/ 13 - 15 نونبر 1991م، مطبعة ديديكوسا، ص. 302.

³⁴ - الفصل 2 من ظهير المطبوعات 1936، انظر: محمد الحبيب الخراز، ص. 133.

³⁵ - الفصل السادس من ظهير المطبوعات 1936، انظر: محمد الحبيب الخراز، ص. 134.

³⁶ - الفصل السابع من ظهير 1936

الظهير الحق للإدارة الاستعمارية والحكومة الخليفة في توقيف الصحف ومراجعتها قبل الإصدار، إضافة إلى منع الصحف التي تصدر خارج المنطقة الشمالية من الدخول إليها.³⁷

4 - 4 قانون الصحف الأجنبية الواردة على المنطقة الشمالية:

كان استعمال البريد الأجنبي للتوصل بالصحف والجرائد الصادرة من خارج منطقة الحماية الإسبانية من طرف وطني المنطقة الشمالية المغربية، سببا في دفع إسبانيا إلى إصدار "ظهير ترويج الصحف" بتاريخ 10 شتنبر 1949م³⁸، وقد حاولت الإدارة الإسبانية من خلال إصدار هذا القانون، إحكام الرقابة على الصحف التي تروج في المنطقة أو الواردة عليها من مناطق أخرى.

لقد كانت إسبانيا تعلم جيدا أنها لا تستطيع تقييد حرية الصحافة في الميتربول الإسباني، وبما أن بعض التوجهات كانت تعارض السياسة الاستعمارية الإسبانية ووجود هذه الأخيرة في شمال المغرب وجنوبه، فقد كان مناهضو التوجه الاستعماري يصرون صحفا تتضمن نقدا للسياسة الاستعمارية الإسبانية وتطالب بجلاء إسبانيا عن المستعمرات. وخوفا من وصول هذه الصحف إلى المنطقة الشمالية، وتأثر الوطنيين بما تحمله من أفكار. فقد عمدت المندوبية السامية الإسبانية في المغرب، إصدار قرار تمنع بموجبه مجموعة من الصحف الإسبانية التي كانت تصدر من خارج إسبانيا، وذلك يوم 20 أكتوبر 1949م.³⁹

5 - الجمعيات الصحافية:

عرفت المنطقة الشمالية على المستوى الإعلامي سبقا إعلاميا تنظيميا تمثل في تأسيس النقابة الحرة للصحفيين المغاربة والإسبان يوم 11 نونبر 1934م، وذلك بمبادرة من عبد الخالق الطريس والصحفي الإسباني رفايل رودا (Rafael Roda) الذي ترأسها وجعل الطريس نائبا له، وكان في عضويتها محمد داوود والتهامي الوزاني وعبد السلام بنجلون ومحمد أفيلال ومجموعة من الصحفيين الإسبان⁴⁰.

³⁷ - الفصل السابع عشر من ظهير 1936

³⁸ - صدر بالجريدة الرسمية العدد 36 ص 556 وهو ظهير مغير لظهير 13 يونيو 1935 بشأن ترويج الصحف بالمنطقة الشمالية المغربية.

³⁹ - محمد الحبيب الخراز، ص. 144

⁴⁰ - محمد بن عزوز الحكيم، الحاج أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله، الجزء الأول، م س، ص.

لقد كان وجود مغاربة وإسبان في هذه النقابة أمرا لافتا للانتباه بالنظر للعلاقة الاستعمارية بين إسبانيا وشمال المغرب، إلا أن هذا الأمر يمكن تفسيره بوجود نوع من التعايش بين نخب المنطقة الشمالية وإسبانيا المستعمرة خلال المرحلة الاستعمارية، وقد كان لهذا التعايش أثر كبير على مناخ الحريات في الشمال، ويبقى تطور حرية الإعلام نسبيا مقارنة مع منطقة الحماية الفرنسية أحد تجلياته⁴¹.

خلاصات

يمكن اعتبار المنطقة الشمالية المغربية وتحديدًا مدينة طنجة، منطلقًا لظهور الصحافة المغربية بالنظر لوضعها الدولي، والحضور القوي للصحافة الأجنبية فيها، مما ساهم في خلق نوع من الوعي بأهمية هذه الآلية التواصلية لدى المغاربة. خصوصًا، وأن وعي المخزن المغربي بأهمية الصحافة في صد المساعي الرامية لاستعمارها، قد تطور بعد أن استشعر خطورة الصحافة في إبراز جوانب ضعفه. ومن جهة أخرى، فإذا كان القوى الاستعمارية الأوربية قد شجعت الصحافة ودافعت عن حريتها في منطقة طنجة الدولية قبيل الاستعمار، فإنها عمدت إلى سن القوانين والتشريعات الصارمة التي ضيقّت مساحات تحرك الصحافة المغربية التي حاول الوطنيون تأسيسها، وسعت إلى محاصرتها حتى لا يكون لها أي تأثير على وعي المغاربة بخطورة الاستعمار.

وعلى مستوى آخر، يمكن اعتبار وضع الحريات الصحافية بالمنطقة الشمالية المغربية، أكثر انفراجًا مقارنة مع منطقة الحماية الفرنسية، حيث كانت فرنسا تضع قيودًا أكثر صرامة على العمل الصحافي الذي يبادر صحفيون مغاربة التأسيس له هناك، ويمكن ربط هذا الاختلاف بطبيعة الوضع السياسي في الميتروبول الإسباني الذي كان يعيش تحولات مختلفة مستمرة، ووجود التيار الشيوعي الذي كان يناهض استعمار إسبانيا للمغرب، وهو ما حاول الوطنيون في الشمال المغربي، الاستفادة منه خصوصًا في العهد الفرنكوي الذي خفت خلاله إسبانيا قبضتها على المغرب، بفعل انشغالها بالحرب الأهلية الإسبانية، ومحاولة تفاديها لأي انفجار محتمل للأوضاع بالمغرب، يجعلها منشغلة بجبتهين في وقت واحد.

لقد كانت محاولات تأسيس الصحافة المغربية بالمنطقة الشمالية خلال الاستعمار الإسباني، مؤطرة بالعلاقات الجيدة التي كانت تربط الوطنيين المغاربة ببعض الفاعلين الإسبان، رغم أن هذه العلاقات لم تشفع في مناسبات مختلفة، بفعل توجس الإدارة الإسبانية الذي ظل قائمًا، والذي جعلها تتعامل بحذر شديد مع محاولات التأسيس للصحافة المغربية بالشمال.

41 - عبد الهادي بوطالب، ذكريات، شهادات ووجوه، الجزء الأول، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، الرباط، 1992، ص.360.

دراسات محكمة: تاريخ الصحافة في شمال المغرب، قراءة في القوانين المنظمة للصحافة في الحقبة الاستعمارية



مركز تكامل للدراسات و الأبحاث
TAKAMUL Centre for Intelligence Research and Studies

قائمة المصادر والمراجع

- رحلة الصفار لفرنسا 1845 - 1846 لمحمد بن عبد الله الصفار الأندلسي التطواني، سوزان ميلر، ترجمة: عبد الله بن الصغير، الطبعة الأولى، دار السويد للنشر والتوزيع، أبوظبي، 2007.
- عبد الكريم غلاب، المغرب الأقصى، نشر حزب الاستقلال، القاهرة، 1951.
- محمد الحبيب الخراز، محمد الحبيب الخراز، الصحافة بشمال المغرب من التأسيس إلى الاستقلال، مطبعة إمبريا مدريد، الطبعة الأولى، تطوان، 2012.
- عبد القادر الخراز، مجلة دار النيابة، العدد 13 سنة 1987.
- التهامي الوزاني، الزاوية، مطبعة الريف، تطوان، 1942.
- عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية من الحرب الريفية إلى بداية الاستقلال، الطبعة الأولى، مطابع الشركة الوطنية للطبع والنشر، الدار البيضاء، 1976.
- جامع بيضا، دور الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الإعلان عن الاستقلال، ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، 1904 - 1955، بتاريخ 6 - 8 جمادى الأولى 1412 هجرية/ 13 - 15 نونبر 1991م، مطبعة ديديكوسا.
- محمد بن عزوز الحكيم، أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله، الجزء الأول. مطبعة الساحل، الرباط، 1987.
- عبد الهادي بوطالب، ذكريات، شهادات ووجوه، الجزء الأول، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، الرباط، 1992.
- Jamaà Baida, La presse marocaine d'expression française des origines à 1956, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Rabat serie Theses N°31 1996.

فهرس المواد

- مقدمة
- ما قبل الصحافة بالمغرب... القنوات التقليدية لنقل الخبر
- الصحافة بالمغرب قبل الاستعمار
- رحلة الصفار .. أول احتكاك للمغاربة مع الصحافة الأجنبية
- الحركية الصحافية بطنجة قبيل الاستعمار
- سياسة المغرب مع الصحافة قبيل الاستعمار
- الصحافة بالمنطقة الشمالية المغربية خلال الاستعمار الإسباني
- الجرائد العربية بالشمال المغربي
- المبادرات المغربية الأولى لتأسيس الصحف في المنطقة الشمالية
- مشروع جريدة النهضة
- قوانين الصحافة بالمنطقة الشمالية خلال الاستعمار الإسباني:
- الظهير الخلفي الخاص بقانون الصحافة يوم 22 محرم 1346 هـ، الموافق 22 يوليوز 1927م
- ظهور الصحافة العربية بشمال المغرب بعد ظهير 1927:
- ظهير 11 يناير 1936م
- قانون الصحف الأجنبية الواردة على المنطقة الشمالية:
- الجمعيات الصحافية
- خلاصات